بسم الله الرحمن الرحيم

ظالم بن سارق!

الحمدُ لله...

سمّت العرب أبناءها بالأسماء المستشنعة!

ظالم، وجحش، وغراب! من عجائب ما كان عند العرب من العادات التي غيرها الإسلام، أنهم كانوا يسمون أبناءهم بالأسماء ذاتِ الدلالةِ غيرِ الحسنة، ويتفاخرون بذلك، قال ابن دُريد: قيل للعتبي: ما بال العرب سمّت أبناءها بالأسماء المستشنعة، وسمت عبيدها بالأسماء المستحسنة؟ فقال: "لأنها سمت أبناءها لأعدائها، وسمت عبيدها لأنفسها"(١).

وهذا القول تعليل متكلَّف لا يستقيم، لأن الاسم يلازم صاحبه لا عدوه، ولا يوجَّه في الحقيقة إلا إليه، وقد جاء الإسلام فأبطل هذا الميزان، فحث على تحسينها، وغيّر القبيح منها، وجعل الاسم عنوانَ كرامة لا أداة تخويف ولا تمييز، قال ﷺ: "إنَّكُم تُدعَونَ يومَ القيامَةِ بأسمائِكُم

(١) الاشتقاق، لابن دريد (١/٤).

وبأسماءِ آبائِكُم فأحسِنوا أسماءَكُم"[1].

تظلم أنت ويسرق أبوك!

ولنقف وقفة مطولة مع اسم ظالم، ولنستفتح المقال بقصتين عن رجل أراد عمر أن يوليه منصبًا، فسأله عن اسمه فقال: ظالم بن سرَّاق، فقال: تظلم أنت ويسرق أبوك! فلم يستعن به [2].

فاستشكل عمر اسمَه كيف يُقدَّم للناس من يحمل في اسمه ونسبه معنيين يضادّان العدل والنزاهة؟

وذكر ابن القيم أن ظالمَ بن سرّاق هذا اشترى سلعة وبضاعة بالأجل-وهو ما يعرف اليوم بالتقسيط- فأراد البائع أن يكتب معه عقدًا، فقال البائع: ما اسمك؟ قال: ظالم، قال: ابن من؟ قال: ابن سرّاق، فقال البائع: لا والله. لن يُتم الله هذا البيع [3].

إن للظلم بلية لا تخفى، ونذيرًا لا يخطئه القلب السليم، حتى إن اسمه إذا مرّ على السمع أورث نفرة، وإذا لاحت آثاره في الناس أورثت خوفًا وريبة.

---

(١) رواه أحمد.

(٢) ربيع الأبرار، للزمخشري (٢/٤٥٤)

(٣) بتصرف من كتاب مفتاح دار السعادة (٣/١٥٤٢).

إن هاتين القصتين لا تُرويان للتطيّر بالأسماء، ولا للحكم على الناس بمجرد الألفاظ، ولكنهما شاهدتان على اتقاء الأسماء المستشنعة، وأن الظلم مستقبح في الفطر، منبوذ في القلوب، وأن العاقل الفطن يتوقّى أسبابه قبل أن يقع في شراكه، وسوف يكون الحديث مع ثلاثة أنواع من الظلم:

أعظم الظلم.

الأول: أعظم الظلم، لمّا نزل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ الأنعام: ٨٢ وقع في نفوس الصحابة رضي الله عنهم من الهيبة والوجل الشيء الكبير، إذ فهموا من الآية أن الظلم كل ما يقع فيه الإنسان من تقصير أو ذنب، وقالوا في صدق وخوف: يا رسول الله، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ أينا لا يظلم نفسه؟ وهذا من كمال ورعهم، لا من ضعف يقينهم، فجاء البيان النبوي بيانًا شافيًا، رفع الإشكال وردّ اللفظ إلى مراده الإلهي، فقال: «ليس ذلك»، أي ليس الظلم هنا على عمومه الذي فهمتموه، ثم فسّره بأعظم أنواعه فقال: «إنما هو الشرك»، ثم لم يكتف بالتصريح، بل عضّد المعنى بالقرآن، فاستشهد بقول

لقمان: ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴾ لقمان: ١٣، فكان هذا من أبلغ ضروب البيان، فالعبد إذا عبد الله فقد عدل، وإذا عبد غيره فقد ظلم.

وانظر إلى صرف العبادة للمقبورين في الزمان، كحال من يدعو أصحاب القبور، كأحمد البدوي أو السيدة زينب أو إبراهيم الدسوقي، يعكف المتعلّقون بهذه الأضرحة والمزارات على تعظيمها تعظيمًا بالغًا، فيبالغون في تشييدها، فتُقام لها القباب الشاهقة، وتُكسى جدرانها بالزخارف، وتُرصّع أحجارها بما نفُس وغلا، وفي مقابل هذا البذخ الصامت للميت، يقف الحيّ المكابد بلا سند، ويطوي الفقير أيامه على حرمان، كأن العطاء قد انتقل من صدور الأحياء إلى قبور الأموات.

وصدق الشاعر إذ صوّر هذا الخلل تصويرًا موجعًا فقال:

أحياؤنا لا يُرزقون بدرهم

وبألف ألفٍ يُرزق الأموات

من لي بحظِّ النائمين بحفرة

قامت على أحجارها الصلوات

نعم. الشرك أعظمُ الذنوب إذ يفسد أصلَ التوحيد الذي

تُبنى عليه سائر الأعمال. فكل ظلمٍ دون الشرك تحت المشيئة، أما الشرك فحاجزٌ دون المغفرة ما لم يُتَب منه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴾ النساء: ٤٨

ظلمٌ خفي لا قاضٍ فيه ولا شاهد.

أنتقل الآن إلى ظلم آخر، ظلم خفيٌ، ظلم لا يُرى في ساحات الخصومة، ولا تُرفع فيه الشكاوى، ومع ذلك هو أشد وقعًا وأدوم أثرًا، لأنه ظلم يقع في الداخل حيث لا قاض ولا شاهد، ظلمٌ لا يفرضه عدو، ولا يُمليه سلطان: أنه ظلمك لنفسك، نعم. من غير المنطقي أن يظلم الإنسان نفسه، كيف يظلم المرء نفسه وهو أعرف الناس بها، وأحرصهم -في الأصل- على نجاتها؟ ومع ذلك فهو واقع، بل هو من أكثر أنواع الظلم شيوعًا.

ومن المهم جدًا أن يقال: إن ظلمُ النفس ليس مقصورًا على معصيةٍ ظاهرة أو شركٍ جليّ، بل له وجوهٌ خفيّة، تتسلّل إلى القلب من حيث يظن صاحبها أنه مُحسن، أو متألّم، أو مُشفِق، فإذا بها تُثقِل روحه وتستنزف طاقته وتحرمه سكينة الرضا. ومن

أصدق ما يجلّي هذا المعنى قول نبيّ الله يونس عليه السلام وهو في بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الأنبياء: ٨٧، فما هو ظلم النفس الذي وقع فيه يونس حتى يبتلعَه الحوت؟ كان ظلم يونس لنفسه أنه غضب؛ غضب حين كره أن يُرفَع العذاب عن قومه بعد أن توعّدهم[1]، فاستعجل الرحيل قبل الإذن، وغلب عليه الانفعال، فكان جزاؤه أن يُحبس في ظلمات ثلاث، حتى أدرك أن الرحمة الإلهية أوسعُ من توقعات البشر، وأن الغضب إذا لم يُضبط صار ظلمًا للنفس.

ومن هذا الباب تتفرّع صورٌ معاصرة كثيرة لظلم النفس:

كثرة الحزن الذي يغرق القلب في استرجاع ما فات حتى يعجز عن التقدم في حياته، فيكون أسيرًا لآلامه.

وكثرة الغضب الذي يفقد المرء اتّزانه فتجعله أسيرًا لمكايد الشيطان على انفعالاته.

---

(١) قال القشيري: "والأظهر أن هذه المغاضبة كانت بعد إرسال الله تعالى إياه، وبعد رفع العذاب عن القوم بعد ما أظلهم، فإنه كره رفع العذاب عنهم" تفسير القرطبي (١١/ ٣٢٩).

والإفراط في التعاطف مع الناس ومداراة مشاعرهم على حساب النفس، حتى يُستنزَف الإنسان باسم اللطف والرحمة، فينسى حق نفسه في الراحة والاعتدال.

ومن ظلم النفس نسيانُ النعم فيكون أشدَّها خطرًا؛ لأن القلب إذا ألف النعمة ولم يشكرها صار ساخطًا وإن كثُر ما عنده من الخير والمال.

فأكثر من قول: ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فإن دعاء يونس مدرسة خالدة، يبدأ بالتوحيد﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ ﴾ ويتوسّل بالتنزيه﴿ سُبۡحَٰنَكَ ﴾ ، ويختم بالاعتراف: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ حتى يتحرر القلب من ظلم النفس الكثير الذي لا تدركه الروح.

من ميزان النزاهة إلى ميزان الرشوة.

قصة تبدأ في لحظةٍ صامتة، موظفٌ في القطاع الصحي غاب عنه الرقيب الداخلي، ضُبط متلبسًا وهو يتسلّم مبلغًا قدره خمسُ مئة ألف ريال، لا على سبيل الأمانة، بل ثمنًا لتسهيل إجراءات التأهيل والترسية لمشروعين صحيين، بلغت قيمتهما أكثر من ثلاثِ مئة مليون ريال. مشروعان كان ينبغي أن يمرّا بميزان

النزاهة، فإذا بهما يُدفعان بميزان الرشوة، ولم تكن تلك الدفعة إلا حلقةً في سلسلة، إذ كشفت التحقيقات أن المبلغ المتفق عليه بلغ عشرة ملايين ريال، تسلَّم منها الموظف سابقًا أربعةَ ملايين ونصف المليون.

أحدثك هنا عن تجلّى الظلم الثالث في أبشع صوره؛ ظلمٌ لا يُمارَس على فردٍ بعينه، بل يمارس على المرضى والعجزة الذين تأخرت خدمتهم في القطاع الصحي، وعلى مجتمع لا يدري كيف ارتفعت كلفة مشاريعه، وعلى ثقةٍ عامةٍ تُنتهك بصمت، إنه ظلم المال العام، خيانة مركّبة، وخيانة للوظيفة، وظلم للمجتمع بأسره، هذا اللون من الظلم أخطر ما فيه أنه يُمارَس غالبًا في الخفاء، ويتزيّا بلباس النظام والإجراء، فيظن صاحبُه أنه في مأمن، وهو في الحقيقة يوسّع دائرة الظلم من حيث لا يشعر، ومن هنا تأتي خطورة هذا الظلم؛ لأنه لا يظلم شخصًا واحدًا بل يظلم وطنًا كاملًا، ولا يفسد مالًا فحسب، بل يفسد القيم، ويُضعف هيبة العدل، ويجعل الصالحين يدفعون ثمن فساد غيرهم. ولهذا كان التصدي له واجبًا شرعيًا قبل أن يكون إجراءً نظاميًا، وكانت مكافحته من أعظم صور إقامة

العدل، وصيانة المجتمع، وحماية المال الذي استخلف الله الناس عليه.

نعوذ بالله من الظلم كلّه، ظاهره وباطنه، دقيقه وجليله، ونعوذ بك اللهم أن نظلم بشركٍ أو كفر، أو نظلم أنفسنا بغضبٍ أو حزنٍ أو غفلة، أو نظلم عبادك بقولٍ أو فعلٍ أو خيانة أمانة.

وكُتِبَ في ١٧ / ٨ / ١٤٤٧ هـ

أ.د عاصم بن عبدالله بن محمد آل حمد